الفصل الثامن والعشرون

التشابه الفولكورى في قصص الحب بين الجزيرة العربية وسودان وادى النيل
مجنون ليلى وتاجوج والمحلق

كما اشتهرت في الجزيرة العربية قصة حب مجنون ليلى ، فقد اشتهرت في السودان قصة المحلق وحبه لابنة عمه تاجوج . وهناك بعض التشابه في هاتين القصتين ، فالمحبان ذو قرانه قريبة وقعا في حب بعضهما بعضا منذ نعومة أظفارهما . وقصة مجنون ليلى معروفة لدى الخاص والعام . وقد سطر أحداثها وتفاصيلها كثير من قدماء الكتاب ومحدثيهم . ولذلك فقد ضربنا صفحا عن ذكرها . أما قصة حب تاجوج والمحلق ، وما دار فيها من آلام وأحلام ، فقد لجأنا إلي القصة التى كتبها المؤرخ السوداني محمد صالح ضرار ، والتى طاف من أجلها بوادي منطقة قبيلة الحمران بحثا عن تفاصيل ذلك الحب ، وما قاله المحلق من أشعار (بلغة عصره) تخليدا لحبه الجارف ، وتنفيسا عن نفسه المنهوكة . وقد قام هذا المؤرخ بجمع هذه المعلومات ، وطرائف الأشعار ، ووضعها في كتابه مع توضيح أصل القبيلة وهجرتها من حضرموت إلي سواكن ، واستيطانها في أرض التاكة (التاكا) بالقرب من مدينة كَسَلا .

والقصة التى نوردها فيما يلى هى بأسلوب كاتبها لم نفعل شيئا أكثر من كتابة ملخص لبعض حوادثها المثيرة وتطوراتها وذلك رغبة في إعانة القارىء على معرفة أسلوب المؤرخ ، وحوادث القصة ، والتمتع بما بها من

مؤانسة ، والحزن على ما وقع فيها من مآس . كذلك فقد أردنا أن نيسر عليه الحصول على ملخص لها إن لم يجد القصة الكاملة التى كتبها الكاتب ، ولكى نستكمل أيضا جوانب البحث والتقارب بين القبائل العربية هنا وهناك وفي أي مكان .

حياة تاجوج والمخلّق

في قرية عناتر بين سفوح التاكا ورباه ، وعلى ضفة نهر سيتيت الشرقية ، وفي أدغال وأحراش السنط والسدر والأندراب واللالوب وأشجار البان التى تغنّى بها الشعراء في اعتدال القوام ، وبين قبائل الضباينة وبني عامر والشكرية والأحباش عاشت قبيلة الحمران ردحا من الزمن هادئة البال مرتاحة بمقرها الحديث بعد أن فارقت أرض وطنها في ميناء سواكن ملتقى البر والبحر ، والسحاب والجبال . وكانت قبيلة الحمران لا تخشى مطامع جيرانها حتى الأحباش لأنها قد أعدت لهم رباط الخيل ، وصمدت لنزالهم إلي اليوم بشجاعة فتيانها وشيوخها الذين اقتنوا الخيول لصد كل غاز ، وقد ذكر المؤلف السودانى ود ضيف ا لله ، وأوضح قيمة الخيل عند الحمران .

في أواسط القرن الثامن عشر للميلاد تقريبا ، أنجبت قبيلة الحمران عدة شبان بزّوا غيرهم في ضروب البسالة والشهامة ، واختصهم ا لله بحب الطبيعة وجمالها ، فأوحت إليهم بالشعر ، فنظموا أعمالهم وما أوتوه من مفاخرة . فمن بين هؤلاء الشبان الذين سمعنا بشعرهم على بن محمد شقيق تاجوج ، والمخلّق بن علي زوجها وغيرهما من شباب وشيوخ .

ونشأت في القبيلة أيضا فتاة بزت أترابها في الجمال والجاه ، وناهيك بمن تنشأ في بيت العز والترف ونعيم الحياة وسعدها : لها والد هو عميد القوم ، وأخ نال نصيبه في الشجاعة ، ووالدة من أم بني عامرية فتانة القوام ، عريضة بيت الملك إذ يمتد ملك أهلها من أقصى نهر سيتيت حتى سواحل البحر الأحمر .

وما هذه الفتاة إلا تاجوج بنت الشيخ محمد بن علي بن محلق بن محمد بن علي التي دوت أخبارها في أكثر الآفاق ، وتناقل الناس حديث جمالها ، وسارت الركبان تتغنى بما اختصت به من أدب وذكاء . وتسامر الفتيان بشهي حديثها ، ولذيذ خطابها . فتقدم المحلق إلي والدته يطلب منها أن تخطبها له من خاله . فامتثلت الأم وطلبت من أخيها ابنته " تاجوج " لابنها المحلق . فرضي الخال ولكن بعد أن طلب مهرا غاليا من ابن أخيه . فاستعان المحلق بوالده ، وأوجده لأصهاره ، وكل عاشق لا يعوقه غلاء المهر. وتم القران بين الزغاريد والدفوف والرقص .

عاشت تاجوج تحت سقف الزوجية يرفرف فوقهما ملاك الحب المتبادل ، وكانا أسعد زوجين عرفتهما أرض القبيلة .

لم يكن المحلق معصوما من الاتصال ببعض فتيات حبيبات إلي نفسه قبل قرانه بتاجوج كدأب أغلب الفتيان في البوادي والمدن ، وخاصة أولئك الذين يتبعون الكلأ بمواشيهم ، فمن ذلك ما بلغنا من رواة ثقات حادثة جرت لهذين الزوجين كانت فاتحة الشر بينهما . ولا بأس من أن نذكرها هنا بحذافيرها لأن حياتهم لم تهنأ بعدها .

قيل إن المحلق خرج من خبائة في ليلة شديدة المطر ، وقد اكتنفها الرعد والبرق ، وحملق ببصره ليرى اتجاه المطر والأنحاء التى ستحظى بأغزره.

فكان وميض البرق على سهول قوز رجب . ثم هبت عليه رياح الأمطار من تلك الديار ، فتذكر أياما لذيذة قضاها مع صديقة له نائية الخباء ، بعيدة الديار ، ماله من يبعث إليها بشوقه وذكرياته الحلوة ، وأحلامه اللذيذة إلا لمعان البرق ، وقصف الرعد ، وهطول المطر ، وهبوب الريح . وجالت في مخبلته هواجس الأحبة ، فملكت عليه مشاعره ، وأنسته موقفه الذي فيه ، فأنشد وقال :

بَشِدْ واركبْ على الياخُذ لّه عَنّه
فِريوْةَ الرِّيفْ مَعَ التّوبْ المِتَنّى
يَتِبْ عجلانْ قَبْلْ ما نْلمْ رَسَنّا
بيوتْ نّورَة أمْ شِلِيْخ وين من أَهَلْنَا[٤٢]

فلاح له إيماض البرق ثانية من نفس الجهة ، فودّ لو استطاع أن يركب جمله البشارى السريع الذى يثب قبل أن تتمكن أفخاذ المخلق من السيطرة عليه ، فقال يصف حالته تلك :

بشد واركب على ودّ البشارى[٤٣]
فريوة الريف مع المخزم تجارى[٤٤]

---

[٤٢] هذه الأبيات على وزن الوافر في الشعر العربي والبيت مفاعيله كالأتى : مفاعلتن مفاعلتن فعولنّ ، ويُمكن قراءتها بسهولة والاستمتاع بالوزن الشعري إذا قرئت بالهجة السودانية العامية والمعنى العام أنه يشد ويركب جمله الذي يبدى اعتراضا على الفروة المصرية التى توضع على سرجه ومعها الثوب المطوى ، فيثب هذا الجمل متعجلا للمسير قبل أن يلم راكبه الرسن في يده ومقصدهم بيوت نورة التى على وجهها شلوخ (مشالى) لتزيدها جمالا ، وقد بعدث ديارها من أهلنا .

[٤٣] ود البشاري هو الجمل البشاري والبشاريون قبيلة من قبائل البجة بشرق السودان اشتهرت إبلها بالقوة والسرعة . وبشار هو أحفاد الزبير ابن العوام (ض) .

[٤٤] المخزم تجارى أى حزام السرج (الكلّورْ) .

يتبْ عجلان قبْل ما لم حكارى[٤٥]
بِلِيدْ نُورَة أم شِلِيْخ اللَّيَلةْ طارى[٤٦]
ثم قال :
بَشِدْ واركبْ على أب زرداً مدانَةْ
مِتِل وَدَّ الأرايلْ في البطانَةْ
نَضوهر من كريكا اليوم ترانا
نسارى الليل على الخدِّيرْ فلانة[٤٧]

وبينما هو ساهم في تأملاته وأسفاره الوجدانية ناسيا كل ما حوله ، وينشد ذلك بصوته المرتفع ، إذ سمعت تاجوج تلك النفثة الشعرية التى أوحت بها ذكرى الصبا إلي روح الشاعر الحساسة ، فخرجت من الخباء لترى ما اعترى هذا العاشق المتيم الولهان الذى حرك البرق ولمعانه هذه الذكريات ، فانبعثت الأشعار من صميم فؤاده . فوجدت نفسها أمام بعلها وجها لوجه ، فأخذت تحرق الأرم من الغيظ والغيرة ، وانقلبت أسارير ذلك الوجه النضير إلي الكآبة والعبوس ، وكاد يقضى عليها من الحسرة والأسى لولا بقية تعلة وتصبّر . وما أهاج سورة غضبها إلا الخوف والجزع على من وهبت قلبها له ، وأحبت الحياة لأجله ، فلن تسمح لقلبه أن يميل مع الهوى ،

---

[٤٥] حكارى أى أفخاذى .

[٤٦] بِليدْ تصغير بَلَد وطارى معناها متذكر .

[٤٧] أى أشد السرج وأركب جملى القوى الذى في قوة الزرد الحديد والذى يشبه جمل الأريل الذى يعيش في البطانة . والبطانة منطقة سهل طويل عريض في شرق السودان تعيش فيه الأرابل في نعمة من المرعى . ويضيف بأنه سيسافر عند الظهر (نضوهر) من بلدة كريكا ونسرى الليل كله لنصل إلي حبيبتنا الخضراء (السمراء) فلانة .

أو ترضى أن تنزعه منها إحدى بنات حواء ، فتنغّص عليها عيشها ، وتجعل حياتها كلها نكدا وبؤسا . فقالت له ، أعِدْ علي الأبيات التى قلتها الآن .

فأجابها ، قلت :

أُمِّكْ دَبَاسَة وفُوقْ الفّروعْ

وانتِ بتشبهى المُقْد اليموع

سخلة مصنة الطيب ما فيك ضلوع

ليلة فَرِدْ يوم تازن سبوع[٤٨]

فقالت له : أعدْ علي الأبيات التى قلتها الآن . فأجابها قلت :

أمك دباسة وفوق الشدَرْ[٤٩]

وانت بتشبهى المقد الكجَرْ

سخلة مصنة الطيب ما فيك فِقَرْ[٥٠]

ليلة فَرِدْ يوم تازنْ شهرْ

فقالت : ما هكذا قلت . فأجابها ، قلت :

أمك دباسة وفوق القنا

وانت بتشبهى المقد اللى انحنى

سخلة مصنة الطيب ما فيك جَنَى[٥١]

---

[٤٨] إن أمك قمرية مطوقة (دباسة) حطت على الفروع . أما أنت فتشبهين في تمايلك فتدول الذرة الذهبى اللون المسمى (المقد) والذى يتمايل مع الريح (استحسانا لقوامها الميال) . كذلك فإنك ظبية صغيرة عطرة الرائحة حتى ولو كنت في أعطان الظباء كما أنك خلقت وكأنك بدون أضلع من عظام (لفرط لينها . كما أننى إذا قضيت معك يوما فردا فإن ذلك اليوم أو الليلة الواحدة تساوى (تازن : تزن) اسبوعا من الإمتاع .

[٤٩] المقصود بالسدَرْ : الشجر .

[٥٠] مافيك فِقَر أى ليس لديك سلسلة فقرية وذلك كناية عن لينها .

ليلة فرد يوم تازن سنة

فقالت بغضب " وا لله ما هكذا اقلت . نسيبتك تعيد لى ما قلت " . فحار المسكين في أمره ، وعلم أن كل ثناء سكبه لا ستدرار عطفها لم يجد نفعا ، ولم يخفف من غضبها ، وشدة انفعالها . فخضع أمام الحلف العظيم وجلاله ، وهو قسم لا يمكنه أن يتريث في تنفيذه والتغاضى عنه ، والاستهتار به . فقال لها وأنفه راغم قلت " بشد واركب الخ .. " ولكن قال ذلك في صوت كسير يشوبه الخجل والحرج الشديد .

فانفجرت تاجوج صاخبة باكية ، وذهبت إلي منزل أبيها لا تلوى على شيء تشكو حليلها الذى لم يخص لها وحدها وده وحبه ، بل ما زال يشرك معها في قلبه صويجباته أيام طيشة ونزقه .

ولكن كم كان أبوها الشيخ محمد حكيما ، ويعلم من طبائع الجنس اللطيف ما ليس بالقليل . فردها إلي بعلها بعد أن أقنعها بنبالة زوجها وطهره وعفافه . فعلمت تاجوج أن عطف أبيها وحنانه شملا ابن أخته . فقالت لن أعود إلي منزل المخلق ما لم يقصر شَعره عليّ دون أن يشرك معى خليلة أخرى. فرضي المخلق بالشرط مسرورا ، وعاهدها على ذلك ، ثم تدفقت قريحته وتمكن منه الحب والكلف بها ، فملأ البوادى كلها بمنظوم شعره يتغزل في تاجوج ويعتز بحبه لها .

ومما قاله فيها متغزلا :

فصّ الماظ مركب فوق مجمَّرْ
فصّ عينيك يا ام خشما متمَّرْ
فوقْ بستان تحت سالك مضمّرْ

---

[٥١] جَنَى اى جنين وذلك لأنها ضامرة وهى ليست حامل وهذا تأكيدا لجمال قوامها .

جليدك طاقة الكيدى المنمّر[٥٢]

وقال أيضا :

ما بِتْجِيكْ تَمشِي وتخبْ

وما دنقرت حلبت شخبْ

وريقاتك الفوق الصلبْ

جَرِّحَنّى داخل القُلبْ[٥٣]

بدء الخلاف بين الحبيبين

هذا هو المخلق الـذى نظـم عقـود الـلآلىء الشـعرية وتـوج بهـا رأس تاجوج الحمرانية ، وحلى بها عنقها وجيدها ، أضحى صريع غرامها ومريض هيامها كمن سبقوه من العشـاق الذيـن أودى بهـم شـعرهم وغنـاؤهم الـذى كانوا يترددون به لحبيباتهم ، ويُتّوجوهن به على سـائر أترابهـن لكـي يحظـوا ببعض الجزاء الجميل منهـن وبالتشـجيع مـن الأقـران ، ولكـي ينـال العاشـق وعشيقته الشهرة بين القبائل التي يرى بعضهـا أن الشـعر يسـيء إلي السـمعة كما حدث لصاحبنا المخلق ، فقد التقى ذات يوم بـأحد أبنـاء عمومتـه الـذى يقال له النور بـن اللَمـم الـذى عنـف المخلـق أشـد تعنيـف علـى إشـهار حبـه لتاجوج ، التي ذكرها في شعره حتى صار غناء الفرد والجماعـة في البـوادي

---

[٥٢] يصفها بأنها كفص الماس وقد ركب في الذهب الأحمر الذى جمرتـه النـار وأن فمهـا حلـو كحـلاوة التمر ، وأن شعرها غزيز كالشـجر في البسـتان وأن خصرهـا نحيـل ، كمـا أن بشـرتها (جليـدك هـى تصغير جلدك) ناعم كطاقة قماش الكيدى المنمر .

[٥٣] تمشى برشاقة دون صوت ، وهى لا تحلب إليهم . أما الأحجبة التى تلبسها خوفا من عيون الحساد فوق خصرها فقد تسببت في جرح قلبى.

والحضر ، وأصبحت هي مضغة الأفواه تلوكها الألسن ، وعرف اسمها ووصفها القاصي والداني .

فأجابه المحلق " وا لله يا ابن اللمم لو رأيتها لعذرتني والتمست لي المبررات ، ولو كنت بعلها مكاني لما فارقتها لحظة ، ولبقيت أسير حجليها ".

فقال النور " أنا لم أرها ، ولكن يجمل بمن في منزلتك أن يخفف من غرامه وأشعاره " .

فأجابه المحلق " إنني حاولت ذلك ولكنني لم أطق ، فتعال معي إلي الخباء كي أريك إياها في غفلة منها " .

وكانت هذه الدعوة كافية لأن تظهر اللوثة التى أصابت المحلق من جنون حبه ، وأنه أصبح لا يعرف ما يصح وما لا يصح . لقد أضحى مجنونا ما في ذلك شك . فسارا معا ، ثم ثقب المحلق الخباء من خلفه ، وأوقف النور أبن اللمم ، ودخل داره ظنا منه أن تاجوج حقيقة غافلة لما ثقب خباءها ، فأخذ قسطه من الراحة ، ثم طلب منها أن تقف أمامه وترقص .

فتعجبت من طلبه ، ولكنها صبرت وتجلدت ، وقالت سمعا وطاعة ، ولكنى أشترط عليك أن تجيب طلبى بعد تنفيذى لرغبتك ، وأن تقسم بالطلاق مقدما على تنفيذه . فرضي المحلق ظنا منه أنها مهما طلبت فلن تتعدى مطالبها مراحات الإبل والبقر .

فلما ضمنت منه تنفيذ طلبها رضيت بما أئتمر عليه مع النور . فطلب منها أن ترقص أمامه على ضوء النار إذ كان الوقت ليلا . ورجاها أن تتمايل في رقصتها يمنه ويسرة ، وتتثنّى وتتوسد شعرها ، وأن نشبك أصابع يديها ثم تردهما إلي الخلف عن طريق رأسها. وكان هو يغنى لها عدة أغان ، ثم قال لها كيف ترقصين إذا مت. فأجابت رغبته دون أي امتعاض أو تذمر ،

وتمنطقت بثيابها كما تفعل النساء في ساعات النواح ، وفعلت أشياء أخرى اعتادت النساء في ذلك العصر الإتيان بها في العويل والبكاء ... ولما انتهت من رقصاتها على أصوات العرضة والنقارة كان الفرح قد تملكه ، والهيام أسكره ، فشكرها وطلب منها أن تذكر مطالبها .

فنظرت إليه طويلا وجسمها يرتجف ، وقالت له بصوت فيه صرامة وألم وجراح " طلبي واحد وهو الطلاق والفراق الأبدي " . فصعق حين سمع طلبها ، وانزعج ابن اللمم وولى هارباً من وراء الخباء بعد أن دمر عامرا حلالاً ، وشتت قلوباً وأجساماً طالما عاشت في حياة هنيئة ، وعيشة رغيدة . وأخذت تاجوج ما كان بيدها من دثارها ، وخرجت إلي بيت أبيها والمخلق يتوسل إليها بكل عزيز لديها ، ويتشبث بأطراف ثوبها راجيا مستجديا بدون جدوى . وخجل النور عما بدر منه ، وتجنب المجالس والاجتماعات ، وقيل إنه رحل من القرية إلي قرية أخرى بعيدة عن قرية آل المخلق .

بلغ كلف المخلق بتاجوج مبلغا عظيما حتى إن والد تاجوج أخذته الرحمة ، وأدركه الحنان على ابن أخته فرثى لحال العاشق الوامق ، وما آل إليه من شحوب واصفرار ، وهزال وتدهور في الصحة اشتركت فيه أم المخلق بالبكاء والنحيب على ما أصاب وحيدها من آلام بسبب هجر تاجوج له . فاشترط الوالد على المخلق أن يترك الشعر والغناء نهائيا وهو يتكفل برد زوجته المحبوبة إليه . فقال المخلق يستحيل علي أن أترك الشعر لأنه أصبح حديثي وكلامي ، بل وشرابي وطعامي . فأشفق عليه الخال ، وقال له " لو امتنعت عن الإنشاد ليلة واحدة رددتها إليك ". فرضي وهو في غاية الفرح . فأقام عليه الخال الرقباء والشهود في الليلة الموعودة . وأظهر المخلق القدرة على امتلاك شعوره حتى انتصف الليل ، فصار يتقلب يمنه ويسرة كأن حية

لسعته حتى مل مضجعه . فنهض وسار جيئة وذهابا وقد عقد ذراعيه حول صدره ، و كان يشد عليه بهما خوفا من أن ينفجر . ثم بدأ يقعد أحيانا ، ويقف أحيانا أخرى وقد تملكه ضيق شديد ولكنه كان يغالب نفسه ، ويشدد عليها الخناق . وكانت ليلة طويلة ساكنة هادئة إذ قعد حوله الشهود وهم يصغون لكل آهة خرجت من صدره ، وكل أنّة رنت من أضلاعه .

وكاد الصبح أن يلوح ، واستيقظ ديك مبكرا قبل الديوك الأخرى ، فصفق بجناحيه ، ومد صوته طويلا نافذا في الأفق ، فاخترق مسامع الجميع ، ووقع على أذني المحلق وقعة عارمة . وحرك صياح الديك شجون المحلق ، فلم يشعر إلا ولسانه يتحرك وينطق مغنيا :

كَرْ ياديك مالك تصيحْ
عارف حشاك مبرود جوفك نصيحْ
هدفت على بالليل عنز الشليخ
ضاق المنام ما لايْ كلب النبيح[٥٤]

ثم أنشد ثانية :

كر ياديك تصيح مَاكَ الْبَرَاكْ تعبانْ
ما شفت القبيل قامت من الدخان

---

[٥٤] كَرْ " اسم صوت يطلقه الإنسان ليطرد الدجاج بعيدا عن المكان الذى هو فيه . وهنا يطلب المحلق من الديك أن يبتعد عن مكانه متعجبا من صياحه مع أن أحشاءه باردة لا تغلي كما تغلي أحشاء المحلق . ويذكر المحلق بأن المخلوقات جميعا قد نامت ماعداه ، وأنه حتى الكلاب التى تنبح نامت ، أما هو فقد ظل ساهرا الليل بطوله .

الصادق يقول أَرْيَلْ مع الغزلان
والكاضِبْ يقول خلقت بلا مصران[٥٥]

واستمر في إنشاده ذلك دون وعي منه ، وهو يغني المقطع بعد المقطع حتى انتهى ما لديه من حديث مكتوم . ثم صمت عن الإنشاد .

فلما لاح الصباح أدى الرقباء شهادتهم وهي أن المحلق لم يقدر أن يمسك نفسه عن الإنشاد حسب اتفاقه مع خاله .

خرج المحلق وهام على وجهه في البادية ونيران الحب تأكل قلبه وتدنيه من القبر . ومنذ ذلك اليوم كان بدء تعاسته وسوء منقلبه في الحياة التي إذا صفت للمرء زمنا لا بد يوما وأن يعقبها كدر ونكد . وصار كالمجنون يتنقل في أحياء القبائل من دار إلي دار ينشد أشعاره وأغانيه الشجية عن تاجوج ، ونسي ليالية مع نورة أم شليخ وصويحباتها ومثيلاتها .

وبينما المحلق في شجونه وبلواه ، تهافت الخطاب على تاجوج بعد طلاقها منه ، ووفد عليها الوادون من كل جهة وقبيلة بسبب ما أذاعه عنها المحلق من الجمال الفائق ، ولكنها ردتهم جميعا ماعدا واحدا هو النور بن

---

[٥٥] يقول " ابعد يا ديك عني . مالك تصيح (ماك) مع أنك لست الوحيد (البراك) الذى أجهده التعب . ألم تر تلك التى قامت لتوها من محل الدخان " (والدخان عبارة عن عملية تجميلية للمرأة إذ أنها تغطى جسمها كله بشملة أو غير ذلك وتجلس بالقرب من حفرة صغيرة في الأرض توضع فيها الجمرات وبعض أعواد الطيب . فتتعطر المرأة بهذا البخور وتتلألأ بشرتها وتصبح رطبة رقيقة بعد خروجها من العملية) . وشبه المحلق تاجوج بالأريل الذى يتبختر وسط الغزلان لجمال قوامها الذى يبز قوام مثيلاتها من الغزلان . (الكاضب) لغة في الكاذب ، والوصف يقصد به أنها خلقت ليست كسائر الناس . ويغير السودانيون الذال إلى ضاد أحيانا .

اللمم لانه كما قالت رأى منها أثناء رقصها شيئا ما كان يجب أن يراه لو لا جنون المخلق ، فقبلت به فتزوجها .

استاء المخلق لما أن سمع هذا النبأ ، وكظم غيظه خاصة وأنه كان يتمنى ألا يستطيع النور دفع مهرها الذى كان عبارة عن مائة بقرة صفراء فيها غرة بيضاء . ولكن الحظ ساعد النور فوجدها عند أحد أقاربه . ودبت الغيرة في صدر المخلق إذ لم يكن يطرأ على باله أنه هو الذى سيخلفه على مطلقته ، ناسيا ما بينهما من إخاء وصداقة . وقال المخلق عند ذاك يظهر عدم اهتمامه بالأمر وهو يكذب على نفسه .

كَمْ سَوِّيتكْ رفيق ماخْدَ المرة وتلاّلها (تلاله)
كسِبْ لومى أنا والثانية ودَّرْ مالها (ماله)
كم شلّبتها وقلبتها قباله
التّمشِى ام خدود الدنيا مِي دايماله[٥٦]

وبينما كان يسير في الحى شاهد تاجوج ذات يوم من بعد وهى خارجة من منزل جارتها قاصدة خباءها ، فأنشد :

سَدُرْ ، أكتاف علا وضامر فؤاده
كفل ، أوراك مُلُسْ متل الوساده[٥٧]

---

[٥٦] كم جعلت منك رفيقا فإذا بك تأخذ المرأة وتلالها أى الحلى التى تلبس فى الآذان . وإنك يارفيقى قد كسيت لومى لك وأما الأخرى فإنك أضعت (وَدَّر) ما لها . لقد تزوجت بتاجوج قبل النور وتمتعت بها . ولتذهب أم الخدود حيث تشاء فإن هذه الدنيا لن تدوم لها .

[٥٧] يصف صدرها (سدر) الناهد وأكتافها العالية وخصرها (فؤادها) الضامر النحيل . كذلك يذكر كفلها وأفخاذها الناعمة الملساء التى تشبه الوسائد .

وقضى ليلته تلك خلف خباء تاجوج آملا في أن يراها ولسان حاله يقول :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

وانقضت الليلة دون أن يحظى بمشاهدتها وهى التى هواها يا فعا ومراهقا ، وفارقها عند ما اكتملت رجولته ، وكان عليه أن يحافظ عليها ويعض عليها بالنواجذ .

وعرض عليه أهله أن يتزوج غيرها ليسلاها ، ولكنه اعتبر الزواج بغيرها كمن كان يركب على سرج فكيف يرضى أن يركب " حوية " وهى السرج الذى توضع عليه الأحمال فوق سنام الجمل ، وهى عبارة عن قطع من الأخشاب يصعب الجلوس عليها على ظهر الجمل . والعائلات البجاوية الرفيعة لا تركب إلا المخلوفة أو الكور وهى من وسائل الرفاهية في ركوب الإبل . وقال المحلق في ذلك :

وَلْفْ حَكِيَّة
دخول البيت على الأجواد خطية
إنْتِ يا بقّة العسل الروية
بعد الكور كيف أركب حوية[٥٨]

[٥٨] يعنى أن هذا كمن يؤلف حكاية وأن زواجة بغير تاجوج يعتبر خطيئة منه إذ كيف بعد تاجوج التى كانت في حلاوتها كإناء العسل يمكن أن يجد لها بديلا وكيف يركب الحوية بعد الكور ، أو كما قال المتنبى:

وَلّفْ ولايف
شنْ لَمّ الرّكَفْ للقام هو زايفْ
تكَسّر في نهيدنْ ماهو هايف
وتبرد حُمَّة الصيف المصايف[٥٩]

استمر المخلق في طوافه ببادية الحمران مؤملا أن يعثر يوما ما على النور بن اللمم الذى لم يحسن ضيافته ليلة مبيته خلف خبائه حتى عثر عليه وكلاهما على ظهر فرسه. فطلب المخلق من النور أن يصارعه ، فرفض النور ، فهجم عليه المخلق ، ونزعه من سرجه على الأرض وتصارعا . فسقط النور على الأرض ، وقام من وقعته مستاء ، واستأنف المصارعة ، فسقط ثانيا بعد عدة جولات وملاحمات ، ثم هوى بعدها النور إلي الأرض ، فضرط وخجل من نفسه ، ونفض عن ملابسه العفار ، وقام ليركب فرسه . ولكن المخلق قص ذيل الفرس ، وقطع أذنيه (وهذا دأب كل من ينتصر على خصمه من فرسان بادية البجة) ، وقال له : يا نور هل تحمل منى رسالة إلي ابنة العم تاجوج . فأجاب نعم . فقال له :

قل لصافية العلامة
بين قوزين طارت حمامة

ومن ركب الثور بعد الجوا د أنكر أظلاله والغيبْ

[٥٩] يعنى أن مثل هذا الحدث عبارة عن حكاية ملفقة إذ أى شيء هو هذا (شِنْ) الذى يقارن بين الجمل المنتظم في سيره وهو الركف وبين الجمل الزائف . ثم يصف نهديها اللذين لم يتكسرا عما كانا عليه وهى ناهد ، ثم يثني على جسدها الذي يكون بارد الملمس حتى في شدة الصيف حيث يريد الزوج جسدا باردا يأوى إليه .

فلما وصل النور داره أخبر تاجوج بالرسالة . فأجابته " ويحك هل صارعت المحلق فصرعك ؟ " فقال " نعم ، وكيف عرفت ذلك ؟ " قالت " أخزاك الله . أما تخجل يا هذا من نقل فضيحتك إلي . والله لن أرتضبك بعلا لي بعد اليوم ." ورحلت عن منزل الزوجية الثاني إلى غير رجعة .

وتناقل الناس خبر مصارعة المحلق والنور ، وما كان فيها من مفاجآت حتى اضطر النور إلى الاختباء عن المجالس والمجتمعات .

بعد طواف عدة سنين بين الأحياء العربية والبوادي الحمرانية انهارت صحة المحلق ، فعاد إلى أهله ولزم داره ، وتولت أمه الحنون العطف عليه والسهر حوله لا تترك دواء أو علاجا نافعا إلا أحضرته لوحيدها . ولكن لا شفاء له من مرضه إلا بشيء واحد هو موته أو دنوه من تاجوج ، وهذا من رابع المستحيلات . فبقي في بيته ينتظر اليوم الموعود .

وفي أحد الأيام زار الحي فقيه متجول . فأتته والدة المحلق وقالت له " إن لي ابناً أصيب في عقله بسبب حبه لإحدى البنات ، فهل لك أن تقف عليه عسى الله أن يأخذ بيده ويتم شفاؤه " . فقال الفقيه : " إن تلاوتنا ترفع ما به من مسّ ، ومحايتنا[٦١] تشفيه مسن المرض الذي به " . وسارا معا حتى أتياه ، وبدأ الفقيه في التلاوة وحرق البخور ، والبصق الخفيف ، واستمر ثلاثة أيام على تلك الحال .

---

[٦٠] الضنب (الذنب) . الإضنين (الأذنين)

[٦١] والمحاية هي عبارة عن كتابة بعض الآيات القرآنية الشريفة على لوح التلاميذ ومسحها بالماء وحفظ هذا الماء في إناء ليشربه المريض عسى أن يشفى .

وجاءت تاجوج ، ورفعت ستارة البيت كى ترى ما يفعل الفقيه الذى حالما شاهدها بهت واضطرب عقله ، واندهش ، وقد وجه بصره نحوها ، وصار يكتب بعد أن يضع قلمه في التراب بدلا من الدواة . فقال المحلق :

يافَكِى لا تكتُبْ تَقُولْ مريضَكْ طَاْب
فِكْرك إشتغل ، قَلَمك مليتَه تراب
ضامْرةٌ الوسط بالنظر ليها خطاب
جا المخزوز من وسطه العالي فى القرقاب[٦٢]

فخجل الفقيه مما حدث منه خصوصا وقد كان المحلق مراقبا بل مسجلا لكل حركاته وما أصابه من سهمي تاجوج عند ما رفعت الستارة . وأعطيت له بقرة نظير أتعابه ، ثم ارتحل عنهم .

توالت على المحلق الأمراض والعلل ، وكثر عواده والمشفقون عليه ، بل والمترحمون عليه إذ أن الأسقام أضنته حتى أدنته من نهايته المحتومة ، فأشفقت بعض من قرياته عليه ، وطلبن من تاجوج أن تزوره عسى أن يشفيه ا لله مما به من السقم والهزال . فلما أخبرنها بحاله ، وما آلت إليه من الانهيار لبت الطلب ، وقامت معهن قاصدة دار الحبيب الأول .

فلما دنت من الدار شعر بوقع خطاها ، وتعرف عليها فأنشد لمن حوله :

---

[٦٢] يقول المحلق : يا فقيه لا تكتب قائلا إن مريضك قد طاب ولكن رأينا أنشغال فكرك حتى إنك وضعت قلمك في التراب عند ما رأيت تلك الضامرة في خصرها النحيلة في وسطها ذات الكفل العالى الذى تحت الإزار .

ما ها ام شَبَطْ ، ما ها ام لبطْ
ما شَقَّتْ فريق جابت خبطْ
مخروطة لي عند اللباط سُكرَّ نبتْ
اقطَعَنْ بى شيش الشيخة جَتْ[٦٣]

فلما دخلت تاجوج الـدار ، وقعـت الأبصـار علـى الأبصـار ، ودار الخطاب بينهما بلغة العيون والألحاظ ، وانفرجت أسارير وجه المحلق ، وكـان التقطيـب حليفهـا . فدنست مـن سـريره ، ووضعـت رأسـه علـى فخذهـا ، والدموع تتناثر من عينيها وقالت : " أهكذا صرت يا محلـق وأنـا لا أدرى ". فأجابها : " نعم " ، ثم أنشد :

أتارى يا أم قبيل ٱلْغَيْ عبادة
مسوحك بالعطر والناس مَرَاضَى
حِسيسِكْ في الضمير قاطْعَ الكبادة
تَقُتْلي الزول سريع قبل الشهادة[٦٤]

---

[٦٣] يقول إنه لا يسمع لصوت أقدام تاجوج ضجيج أو ضجـة ، وهـى إن اخـترقت (شـقت) الحـي (فريق) لا تحدث إزعاجا . وهى مخروطة الجسم حلوة كأنها سكر نبات . ثم يحذر النسوة بألا يغتبنها (أقْطَعَنْ بى شيش) بصوت عالٍ ولكن (بشويش) لأن الشيخة قد جاءت .

[٦٤] يقول المحلق لتاجوج : لقد عرفنا الآن أن الغي والكبرياء الذى كنت تظهرينه كان من قبيل العبـادة كذلك كان تمسحك بالعطر عند ما كان الناس مرضـى إنما كـان ذرا للعيـون . كمـا وأن حبـك في قلبى قد قطع أكبادى وإنك يا تاجوج تقتلين الإنسان بأسرع من لمح البصر وذلك قبـل أن ينطـق المرْ بالشهادتين عند موته .

ثم صمت ساعة يغالب فيها الموت ، والدموع من تاجوج تتناثر على وجهه كأنها العطر الندي ، ويعتريه الإغماء ، فإذا أفاق يقول كلمات متقطعة هي أبيات من الشعر الباكي . ثم أغمي عليه ، وانكبت عليه تاجوج ، فإذا به قد فارق الحياة وارتفعت روحه إلي بارئها .

أما تاجوج فإنها خرجت في يوم من الأيام في قافلة يزمع أصحابها الذهاب إلي العزاء في قرية نائية ، وقد حملوا معهم الإبل والبقر والسمن والعسل ، وسارت القافلة حتى بلغت مكانا يسمى " تكى لباب " عند وادى أبو عقيلة بالقرب من مدينة كسلا . وهنالك أناخت القافلة لشرب المواشى وأخذ كفايتهم من الماء . وكانت القافلة مكونة من عشرة رجال ومعهم بعض النساء في هوادجهن . فخرجت عليهم عصابة كانت تتربص بهم في ذلك المكان ، وهجمت على القافلة ، وقتل ثلاثة من كل فريق ، وفازت العصابة بالمواشي وسائر ما حوته القافلة حتى إن أحدهم أخذ برسن ناقة تاجوج ، ودافع عنها أحد الحمران ، فاستؤنف القتال ، ونزلت تاجوج من الناقة مطعونة بحربة ، فتلقاها أحد رجال العصابة وأطاح رأسها بالسيف فخرج من عنقها لبن ، ثم جرى الدم حارا ، وسقطت جثتها هامدة .

وهكذا انتهت حياة هذين العاشقين لتصبح خالدة ما نبضت القلوب .